وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
مهرجان القراءة للجميع
سسلة حكايات مصر الطيبة
(٥)

القَاضِي والطَّبيْبُ

رسوم
الفنان / شوقي حسين

بقلم
أبو مسلم يوسف

تحت إشراف
د. إسماعيل عبد الفتاح

الطبعة الأولى ٢٠٠٥م

القاضي والطبيب

اســـم المؤلـــف : أبو مسلم يوسف
رســـوم : أ / شوقي حسين
الناشـــر : الهيئة العامة للاستعلامات
تاريـــخ النشـــر : ٢٠٠٥م
رقـــم الإيـــداع : ٧٦٤٢ / ٢٠٠٥م
الترقـيم الدولـــي : 2 - 054 - 234 - 977
المشرف العام والإخراج: د. اسماعيل عبد الفتاح
مراجعة لغوية وتشكيل : أحمد عبد البديع غريب
كتابـة كمبيوتـر : علـى أحمـد محمـد
الإشـــراف الطباعـى : م/ مجاهد عبد العظيم

القاضي والطبيب

أصدقائي

لَقَدْ سجَّلَ التَّاريخُ لنَا الكثيرَ والكثيرَ في سَماحة الإسْلام وعَدالته بين المسلمينَ وأَهْلِ الكتَّاب من اليهُود والنَّصارَى ، الذين عَاشُوا عَبرَ القُرون الماضيَةِ عَلَى أرضِ مصرَ الحبيبةِ وفي الوطَنِ العَربى فِى أمَنٍ وسَلام وطمَأنينة ...

وحدثت هذه السماحة دائماً : سَواء أكَانَ ذلكَ فى عَهد الرسُول عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ،أو فى عُهد الخُلفَاء الراشدينَ وكَذلكَ في عُهود أغلب الحكَّامِ المسْلمينَ عَلَى مَدارِ القُرون الماضية المتَاعَقبة.

وكانت السماحة والحب والعدل هي السائدة : سَواء أكَانَ ذلك فى عُصور الإسْلام الأوْلَى أو مَا أعقَبهَا من عُصورٍ ، وسَواء كَانَ ذَلكَ فِى شَبهِ الجزيرة العَربية أَوْ كَانَ ذَلكَ عَلَى أرضِ مصْرنَا الحبيبة ...

فلقد كَانَ تلاحمُ المسْلمينَ والأقباط على أرض مصر ملحمةٌ بل ملاحمُ يحتذى بها العَالمُ أجمَعُ ، وخصوصاً فِى الدول الغَربية ...

ويشهد التاريخ أنَّ أعداءَ الوطَن من المسلمينَ والأقباط مَا هُم إلا قلةٌ قَليلةٌ جداً ، وهي قلة شَابَهَا الانحرافُ الخلقىُّ والسَلوكىُّ،

وهم بعيدينَ كُلَّ البُعد عَنْ الإسْلام والمسيحيَّة ، ولا يَعلَمُونَ عَنْ دينهم شَىءٌ ، بتطرُّفهم الشديد وسطحية معلوماتهم عن الدين وسماحته ، وهُمْ ليسو من أهل العلْم فى شَىءٍ...



والآن تعَالوا معنَا ...

نَحكى لَكُم قصَّةً طريفةً سَجَّلَهَا التاريخُ ، حيث نَرىَ نماذج من قيم السمَاحةَ والعَدالةَ والمساواة فى الإسْلامَ.

القاضى

أحمد بن أبى دوؤاد

نَشَبَ نزَاعاً بينَ الأميرِ العَبَّاسى إبْراهيمَ بن الخليفَة العباسي المهدىِّ ، وهُو بالطبع أميرٌ مُسلمُ الديانة ، وبينَ طَبيباً نَصْرانياً يدعي بختيشوع...

وكَانَ هَذَا الطبيبُ مُوظَّفاً فى الدولة الإسلامية التى عَلَى رأسهَا الخليفةُ المهدىُّ وهو والدُ الأمير العَبَّاسى إبْراهيمَ ، وذلكَ بسَبَب عَقَارٍ كَانَا يَتَنَازعَان عَليه في الْمَلْكيَّة لكلٍّ منهمَا ..

وتَطوَّرَ هَذَا النزاعُ بينَهُمَا ...وشكَّ الطبيبُ النصرانىُّ أنه قَطعاً لن يَسْتَطيعُ أنْ يأخذَ حقَّهُ من ابن الحاكم ، وكَيفَ يأخذُ حقَّهُ من الأمير وهُو مُجرَّدُ موظَّف فى الدَّولة؟! .. وخَاصَّة أنَّ خصمهُ ابن خَليفَة المسْلمينَ ...

ولكنَّ .. فى النِّهَايَة وصَلَ الخلافُ إلَى القَاضى أحمدَ بن أبى دَؤاد ...وتحَدَّدَ جَلسَة لهُمَا ..

ويوم الجلْسَـة : وقف الأمـيـرُ العـبَّـاسـىُّ إبراهيمُ بنُ المهـدِى بجانب بختيشوعَ الطَّبيبِ النَّصرانىِّ أمام القاضى.

فَقَـامَ الأميـرُ العـباسىُّ إبراهيمُ بنُ المهْـدى ليَحْكِى قِـصَّتَـهُ ودفَاعَهُ للقَاضِى ...

وأشَارَ بيـده وبصَوت مُرتَفَع إلى بخـتيشـوع يعنِّفُهُ ... مما آثَارَ ذَلكَ القَاضِى فَسجل لَهُ ذَلكَ ...



ثُمَّ قَامَ الطبيب النصراني بختيشوع هُو الآخرُ وحَكَى قِصَّتَهُ ودفَاعَهُ للقاضي ...

ثمَّ جَاءَ دورُ القَاضِى فِى القَضِيَّةِ المطْروحَةِ أمَامَهُ.

فَقَالَ القَاضِى أحمدُ بنُ أبى دُؤاد غاضباً :

ـ يَا إبراهيمُ إذَا نَازعتَ أحداً فِى مَجْلِس الحُكْمِ فَلا تَرفعْ عَليْهِ صَوتَكَ أبداً !!! ، ولاَ تُشرْ إليْه بيَدكَ إطلاَقاً !!! ..





واستطرد القـاضي كلامه غـاضباً بعـد أن لاحظ الصمت المطلق على الجلسة :

ـ وليكنْ قَصـدُكَ أمراً (مُستقـيماً) ، وطَريقُكَ نَهْجـاً (واضحاً) ، وريحُكَ سَاكـنةً ، وكَلامُكَ مُعـتدلاً ، وإعْطِ مَـجَالِسَ الحكُمِ والقَـضاء حقَّهَا مِن التَّوقيرِ والتَّعظيمِ.

فَشَعَرَ الأميرُ إبراهيمُ بخجَلٍ شَديد أمَامَ القَاضى ، كما شعر أنهُ أخْطَأ فى حقِّ مَـجْلس الحُكْمِ والقَضاءِ ، وكَذَلكَ شَعـر أنه أخطأ فِى حَقِّ خَصْمهِ الطبيبِ النَّصرانى فقَالَ مُعلناً :

ـ «أمرتُ بسَـداد ما عليَّ .. وتنازلت عن حقـوقي كأميـر ، ووقفت بجانب الطبيب علىً قدم المساواة حتى لا تذهب مروءتي أمامك ..

وبذَلكَ يكونُ قَدْ اعتَذر الأميرُ المسلمُ عمَّا بدَرَ منه مِنْ خطءٍ فِي حقِّ خَصْمِه النَّصرانيِّ وفي حق القاضي بالاعْتذَارِ ...

ولكنَّهُ لشُعُوره بذنب شَديد ارتَكَبَهُ ، وهو أميرٌ مُسْلمٌ ، ملتزم بتعليمات الإسلام ، فَكَانَ تَكملةُ كَلامِه أمَامَ مَجْلسِ القضاء والحُكم حاسماً :

ـ وَقَدْ وهبتُ حَقِّي من هَذا العقَار للطبيب بختيشوع فلَعَلَّ ذَلكَ يمحُو ذلَّتي (أي ذلة لِسَانه) ولَمْ يَتْلفْ مالٌ قاد إلى مَوْعظَةٍ.



أيُّ مُسَاواة هَذه ؟!! ... وأيُّ عظمة أكْثَرُ من هَذَا القَاضى المسلم يُسوِّى بينَ الأمِيرِ المسْلم ابنِ الخليفَةِ وبينَ الطبيبِ النصرانىِّ بختيشوع ...

والأميرُ سُرعانَ ما يَشْعرُ بخطئه الشَّديد منْ تَعَاليه عَلَى خصمه النَّصرانىِّ... والغلْظَة والشِّدَة من الكَلام مَعَهُ ، ويستجيبُ لنُصح القَاضى ، ويندمُ عَلَى مَا بَدَر منهُ .. ويتنازلُ عَنْ العقَار الذى كان يتنازعُ عَليه مَعَ بختيشوع الطبيب النصْرَانى ... لاَ لأنَهُ حقٌّ للطبيب بختيشوع ... بَلْ ليُعَالجَ خَطَأَهُ الذى ارتَكَبَهُ بذلَّة لسَانه للطَبيب بختيشوع والقاضي داوُد .

هَكَذَا يكونُ التَّسَامحُ والتَّعايشُ فى الإسْلام بينَ الإخوة المسيحيينَ والإخْوة المسْلمينَ.

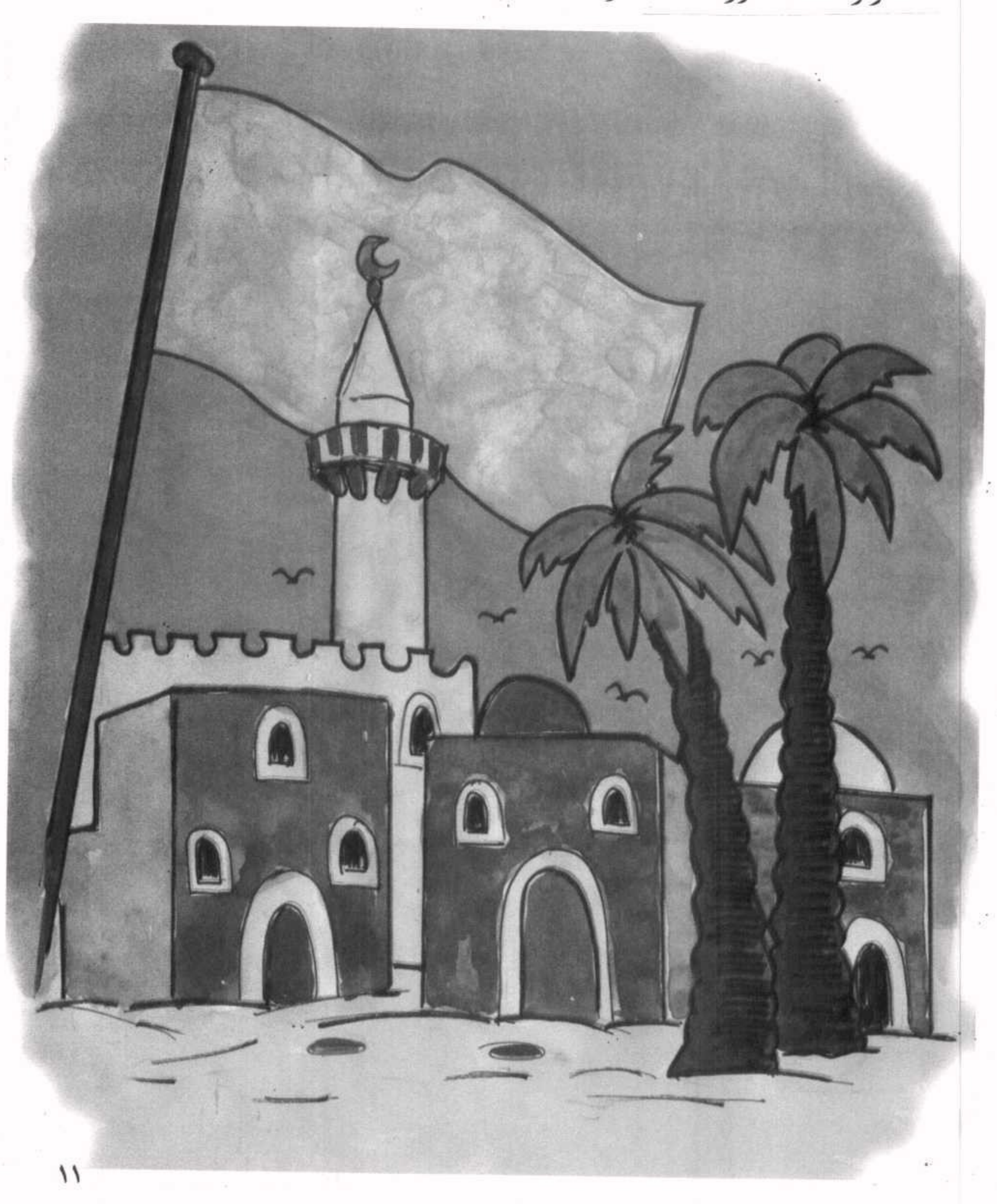
عُمرُ بنُ الخطَّابِ والسَّائلُ

الإسْلامُ يا أصْدقَائى لا يُكْرِهُ أحد عَلَى تَرك ديَانَته واعتنَاق الإسْلام لأن ذلك يؤكد العَدَالة الإلهيَّة التَّى وَردتْ فى القُرآن الكَريم.

والتَّاريخُ يُحدِّثُنَا أنَّ الرسُولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والخُلفاءَ والراشدينَ لَمْ يفرِّقُوا بينَ العَرب والعَجَم فى الجزية فَقَدْ أخذُوهَا من مسيحيو العَربِ ومنْ مجُوسى هجر (وهُم عربٌ) كما أخذُوهَا من يَهُود اليمَن.

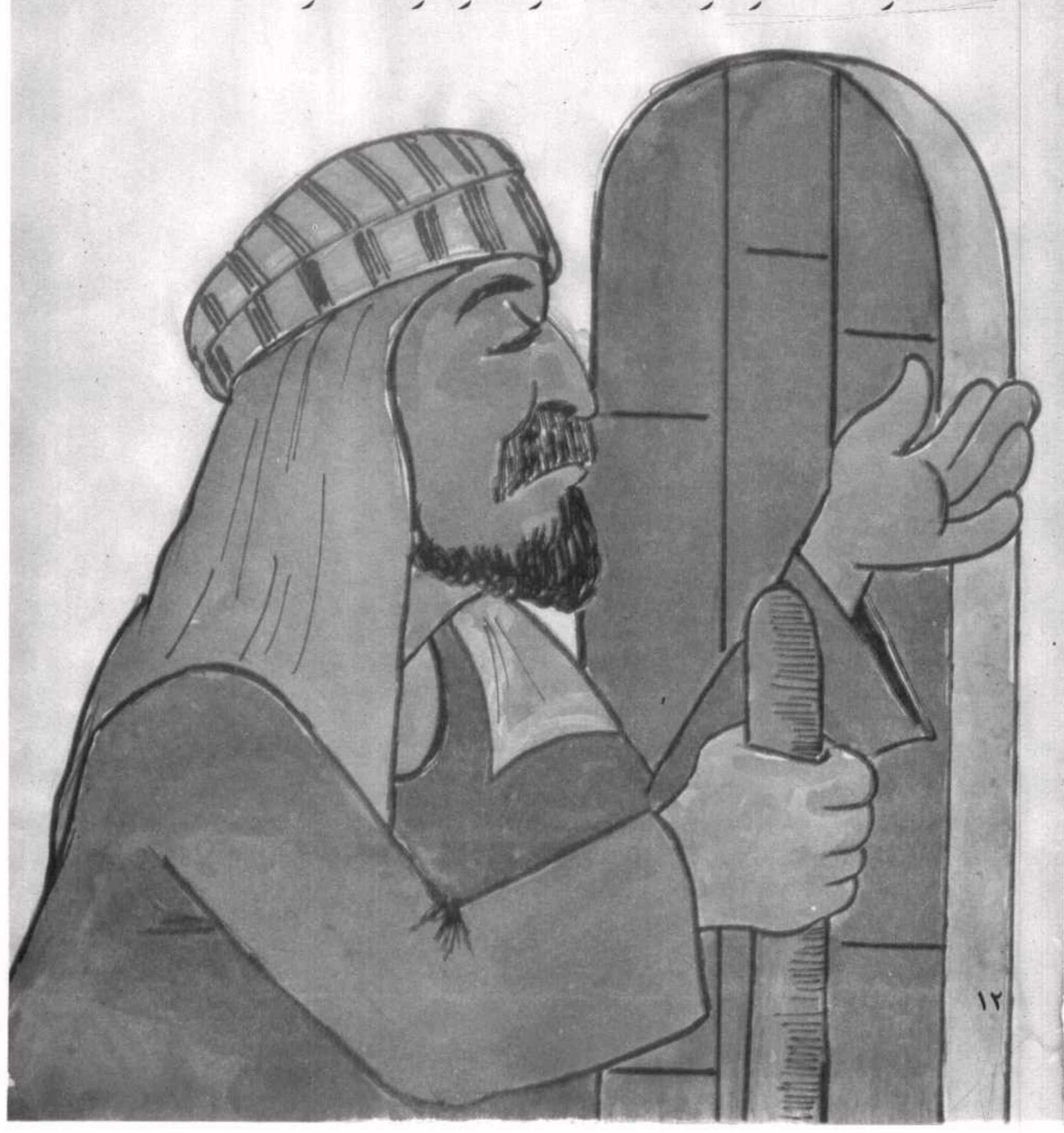
والجِزْيةُ هى المالُ الذى يدفَعُهُ أهْلُ الذِّمَّة للحُكُومَة الإسْلامية.

سَواء أكَـانَت ضَريبةً عَلَى الأشْخَـاص أَمْ ضَريبةً عَلَى الأَرض الزراعـية التى يمتلكُـونَهَـا ، لإنفَـاقـهَا عَـلَى المَرافق العَـامـة للدولَة ومـرتَّبَـات الموظفينَ .. وكـذلك إعْـدَاد جَـيش المسْلمينَ وتمَهـيـد الطُّرق وعـمَـارة المساجد والقَنَاطر والجُسُور وإصْلاح الأنْهَار ...



ومن المعـروف أن الجـزية تكـون مـقـابل الأمن والأمـان الذي يوفـره الإسـلام لأهل الذمـة ، وتسـقـط عنهم الجـزية إذا اشـتـركـوا في القتال مع المسلمين ضد أعدائهم ..

وَمنْ هُنَا نعلمُ يا أصْـدقَائى أنَّ المرافقَ العَـامةَ ليـسَـتْ حكْراً فى الانتـفَـاع بهَـا للمسلمينَ فـحَسب ، ولَكـنْ ينتَـفـعُ بهَـا أيـضاً أهْلُ الكـتَاب والمسيـحيينَ واليَهُود وكل غيـر المسلمين . وذَكَرَ لَنَا التـاريخُ الإسْلامىُّ أيـضاً أنَّ أهلَ الكـتَـاب كَـانُوا ينتـفـعُـونَ بطُرقٍ عديدة مِن الأمْوَالِ التى تُحصِّل مِن الجِزيَةِ والزَّكَاة ...



ومن أوجه انتـفاع غيـر المسلمين بأموال الزكـاة والجزية على سَـبيل المثَـال المنح والعطايا والمعـاشات التي تمنح لأهْل الذِّمَّـة وتشجـيعـهم فى بَعض الفُنُون مثْلَ العـمَارة التى بَرَعُـوا فيـهَا. وكذلك تأمينهم وتحصين بلادهم وحمايتهم من الأعداء ...

والجـزيةُ تُعتبـرُ ضريبـةً لأهل الذِّمَّـة تُحصَّل مـنهُم مُقَـابلَ الزَّكَاة التى تُحصَّل من المسلمينَ لبيت المَال ...

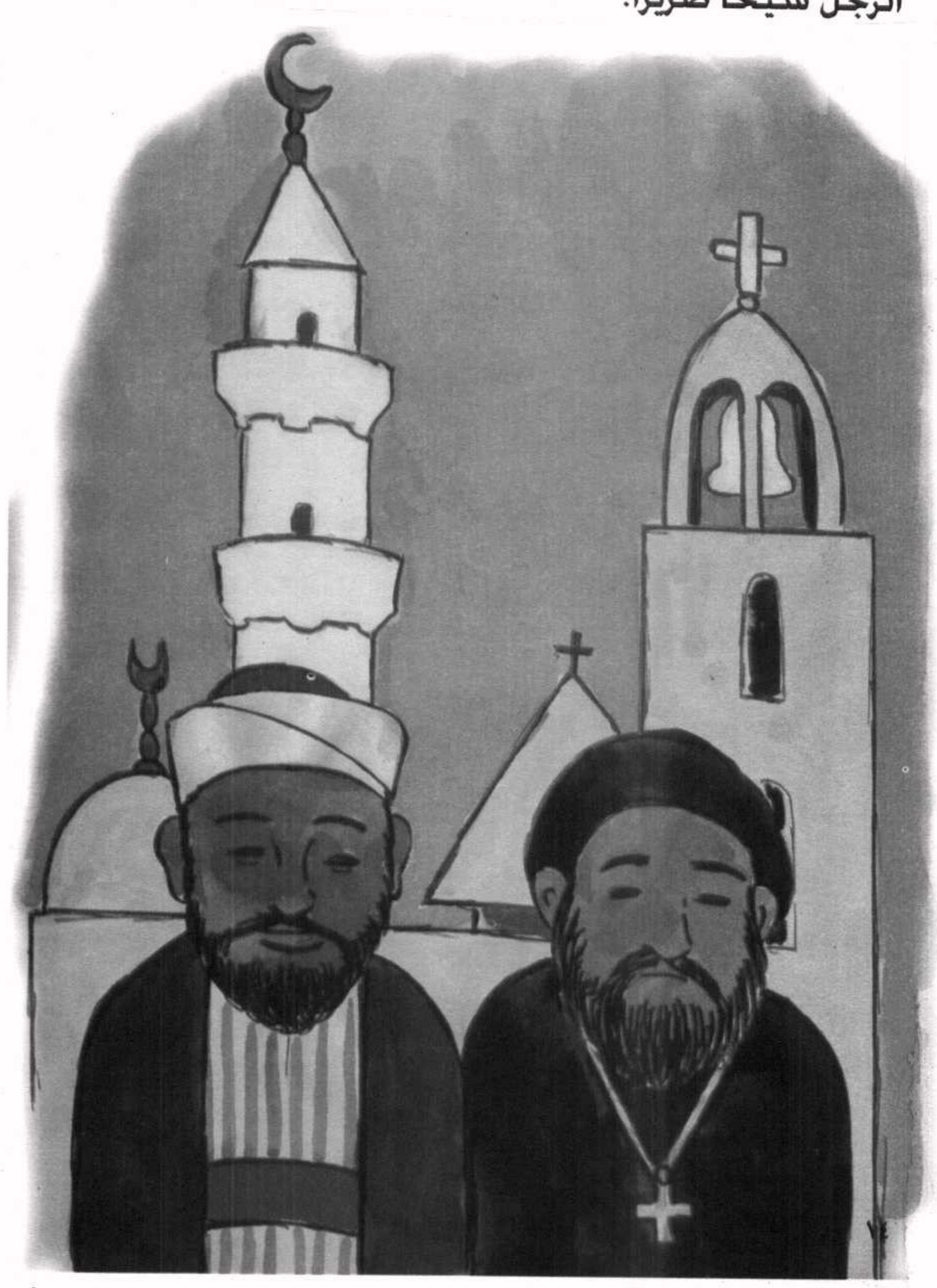
من هَذَا المنطَلق كـانت المُسَـاواة بينَ جـمـيع المواطنينَ الذين يَعـيـشـونَ عَلَى أرض واحـدة ، فَتُـحـصَّل منـهم بعضُ المبَـالغ للمصلَحَة العَـامة للجميع فكَانتْ الزكاةُ للمـسْلمينَ كَمَا قُلنَا والجزيةُ لأهَل الذِّمَّة.

وهُنَا نقص عليكم حـكَايةً طَريفةً : بمنَاسـبـة تحصيل هَذه الجزية .. سَجَّلَهَا لَنَا التاريخُ الإسلامي فى عَـهد الخَليفة عُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه وأَرْضَاهُ.

فلقد أمَـرَّ الخليفةُ عُـمرُ بنُ الخطَّاب ذَاتَ يوم بعـزل والي خاف منه الإساءة لأهل الذمـة ، فهُو قَـدْ اشْتُهـرَ عَنْهُ أنَّهُ كَانَ ينصفُ مَنْ يشْكُو إليـه منْ النصَارَى واليـهُود ، مثْلهم مـثل المسْلمينَ ، وعندمـا عَلمَ أنَّ الوالىَ الوليـدَ بنَ عُـقـبـة ، وليُّـهُ فى ذَلكَ الوقت عَلى بَنى تَغْلب النَّصَارَى ، أنه قَـدْ توعَّـدَ بنى تَغْلب .. فَـخَشىَ الخليفـةُ عُمَرُ بـنُ الخطَّاب أنْ يوقعَ ببنـى تَغْلب شرًّا ، فَـعَزَلهُ وولَّى غيرَهُ مكـانه ..

ومرة أُخرَى ..

وأثنَاء تَفقُّده رضي الله عنه أحْوَال الرعيَّة شَاهَدَ رجُلاً يسألُ عَلَى الأبواب (أَىْ يمدُّ يَدَهُ بالسُّؤال لحاجَتِه) ... فَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ شَيخاً ضَريراً.



فَسَأَلَهُ الخليفةُ عُمرُ بنُ الخطَّابِ :

ـ مِن أىِّ أهْلِ الكتَابِ أنتَ ؟

فَرَدَّ الرجلُ الضَّرِيرُ :

ـ أنا يهودىٌّ!!

فَقَالَ عُمَرُ :

ـ فَمَا الذى ألجأكَ إلى ما أرَى (أي مـا دفعه إلى التسول الذي شاهده حين رآه) ؟

فقَال الرجل اليهوديَ :

ـ الجزيةُ والحَاجَةُ والسنُّ.

فَبكى عمر بن الخطاب ...

وأخَذَه الخليفةُ عُمَرُ رضي الله عنه بيدِه .. وذَهبَ بهِ إلى مَنزلِهِ .. وأعْطَاهُ مِمَّا وَجَدَه فى منزلِه ...

ثمَّ أرْسَلَ إلى خَازنِ بيتِ المَالِ واسْتَدْعَاهُ على الفور ، وقَالَ لَهُ آمراً له ولغيره من أمثاله :

ـ "انظرْ إلى هَذَا الضَّرِيرِ فـو اللَّـه مَـا أنْصـفْنَاهُ إنْ أكـلْنَا شَبِيبَتَهُ ثُمَّ نعزلُهُ عِندَ الهرمِ (أى الكبرِ) ...

ثم أمر بوضَعٌ الجزيةَ عَنه (أىْ رَفَعَهَا).

هَكَذَا المساواةُ ...

وهكذا العدالة ...

وهكذا التَّآخى فى الإسْلام بينَ المسْلمينَ والمسيحيِّين واليهُود وغيرهم من أهل الذمة عَلَى أرض يحكُمُهَا الإسْلامُ ويُشْرِفُ عَلَى شئُونهَا حُكَّامٌ مُسلمونَ ...

فالإسلام لا يفرِّقُ فى المعاملة بينَ قبطىٍّ أو مُسلم ...

فكلّهُم أبناءُ وطنٍ واحدٍ ينعمونَ بالحرية والمواطنة الحقيقيَّة على أرض ذلك الوطن ...

وقَدْ سَجَّلَ التاريخُ هَذَا التَّلاحمَ فى الدِّفَاع عَنْ المعتدينَ عَلَى الوطَنِ ،وعن مصر ، عَبرَ العُصُور المختلفَة ...

وامتزجت دماء الأقباط مع دماء المسلمين في المعارك المختلفة دفاعاً عن مصر في جميع المعارك التي شهدها أبناء مصر على مر التاريخ الإسلامي .....